من هنا وهناك

حديث ناشر لكتاب قديم

لو أنك رأيتنا ونحن حول مخطوطة ننشرها لحسبتنا جماعة من المجانين قد خيل لهم جنونهم شيئا ، فالتصقت رءوسهم وحملقت عيونهم وانعقدت ألسنتهم . . . مجموعة من الرءوس متلاصقة تكون نصف دائرة ، قد أرسلت عيونها خيوطا من النظر حادة مضيئة فتلاقت جميعاً فى نقطة واحدة على كتاب قديم ! . . . تلاقت عند هذا الحرف المطموس أو فى رأس هذه الواو الطائرة أو على نقطة تلك الصاد الهاربة ! ترانا سكوتاً والحقيقة أننا نهتف بكل حواسنا العقلية والفنية ، ونستوحى ما نعلم وما لا نعلم ، ونمسك بخناق هذا الرجل المسكين الذى نسخ الكتاب كيف هانت عليه رأس هذه الواو فصارت راء . وأحيانا ترانا نحاسب هذه الحشرة المسكينة التى توفاها الله منذ أكثر من ألف سنة ، نحاسبها لأنها أكلت نقطة الجيم مثلا فجعلتنا نراها حاء ، فلم تكن هذه الحشرة التى نسميها الأرضة ، تدرى أنه بعد ألف سنة من وفاتها تقوم جامعة فؤاد الأول بنشر هذا الكتاب ، وتحملق عيون كثيرة فى هذه النقطة الضئيلة التى ملأت منها بطنها ! . . .

أنظر إلينا ونحن على تلك الحال حول مخطوطتنا ، وقد عن لأحدنا رأى فأعلنه فارتفعت الرءوس ولمعت العيون ، وأسرعنا لنلائم بين هذا الوجه من الرأى ورسم الكلمة فى المخطوط . ثم انظر إلى صاحب الرأى كيف أشرق وجهه بالرضا حين وافقناه وهنأناه ! . . . ثم مضى فى قراءة المخطوطة كجماعة سفر وقفوا عند بعض الطريق حين أتهمت عليهم ، ثم دلهم أحدهم فمضوا جاهدين ! . . .

انظر إلينا وقد رفع أحدنا رأسه كأنه مستيقظ من سبات عميق ، ثم مد يده يفتح القاموس وهو صامت لا يتكلم ، ثم يجيل نظره فيه ثم يلقيه ، ونحن نعلم أن رأيا عن له فأراد أن يتثبت منه ، فأحيانا يهتف بنا ، وأحيانا يلقى القاموس فى تخاذل وابتئاس ، وقد عاد نظره عالقا بهذه الكلمة المطموسة أو رأس هذا الحرف الطائر أو تلك النقطة المختفية ، يدقق النظر ويستوحى الفكر ، ويعصر نفسه عصرا حتى يجمد فى مكانه . . . ويسأل بعضنا : ماذا كنت تظنها ؟ فأحيانا يقول لا شىء ، وأحيانا يصارحنا بظنه مع اعترافه بتفاهته ، فنتضاحك ونشكره على صراحته ، وربما قلنا له لقد كان سكوتك وتأملك أجدى علينا ! . . .

ونقرأ فى المخطوطة شطر هذا البيت :

أيسيل على الماء فى كل تلعة

ونراه لا يستقيم مع العروض ، فننظر فى رسم حروفه فنراها صحيحة واضحة ، ولا نجد مسوغا لنقول فى حاشية الكتاب هذه العبارة المعتادة التى نلجأ إليها كارهين : « كذا بالأصل » . ونجيل فى أنفسنا هذه الفروض الكثيرة التى تعودنا أن نجيلها عند مايحزب الأمر وتستبهم الطريق ، فلا نجد البيت يستقيم مع فرض منها . . . « الماء يسيل فى كل تلعة » كلام يشبه أن يكون صحيحا لكن البيت مكسور ، فاذا هناك من خطأ ؟ ويمضى وقت ليس بالقليل على تلك الرءوس المتلاصقة

وهذه العيون الشاخصة . . . وتمتد الأيدى إلى القاموس بين الفينة والفينة ، وتظل تجيل الفكر وتقلب النظر وتفترض الفروض . وما دام البيت فى صيغة الاستفهام فلا معدى عن بقاء هذه الألف فى أول كلمة « يسيل » . على أن الصيغة التى يجب أن تبنى عليها الكلمة هى صيغة « فعل » على الاستفهام ، فما عسى أن تكون هذه الصيغة من سال يسيل ؟ . . . إذن لابد أن تكون «أسيل على الماء فى كل تلعة » فهو صحيح الوزن مستقيم المعنى . . . غير أن الشاعر هنا فى معرض الشكوى فكيف يستقيم المعنى على هذا ، وما يجوز أن يشكو لأن الماء يسيل عليه من كل تلعة . . . كلا ، وإذن فلنخلص أنفسنا من هذا الحكم السابق وهذا الافتراض الواهم الذى خدع الناسخ وخدعنا ، فلم لا تكون الكلمة من مادة أخرى غير مادة سال يسيل . ما عسى أن تكون هذه المادة الأخرى أو هذه الكلمة الجديدة على شريطة أن يأتى رسمها قريبا من هذا الرسم الذى كتبه الناسخ ؟ هل قدم الناسح فى بعض الحروف وأخر ، أم هل زاد أم نقص ؟ وهنا يأتى دور الخيال الذى يعلق هذه الكلمة أمام عينيه ويظل يضع حرفا مكان آخر ، وينقص حرفا أو يزيد حرفا لكى تستقيم له كلمة أخرى جديدة تتوافر فيها هذه الشروط الثلاثة : (١) وزن «أفعل» (٢) معنى الشكوى (٣) حروف مقاربة لهذه الحروف فى « أيسيل » . ثم يأتى دور النقط بعد الحروف ، فما عسى أن يكون فى هذه النقط الأربع تحت هاتين الياءين من زيادة أو نقصان ؟ لنبتدئ بالياء الأولى ونحذف منها نقطة ، فقد صارت الكلمة « أبسيل » وهنا يضحك الخيال قليلا حين يرى هذه الكلمة التى ولدها والتى لا يتوافر فيها شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة . ولكن الذهن مع ذلك يتنبه لهذه الكلمة ، فهى كأنها توحى إليه شيئاً لا يكاد يتبينه تماما. أتكون العبارة « أسبل على الماء » ؟ وتمتد اليد إلى القاموس فلا تجد فى مادة سبل يسبل مايوائم هذا المعنى ويتفق مع هذه الصيغة . ثم يعود الخيال فيضع أمام عينيه هذه الكلمة الغريبة التى اخترعها آنفاً فيطيل النظر فى الكلمة « أبسيل » وبعد لحظة وجيزة تهوى هذه الياء التى جاءت بعد السين وتلتحم السين باللام سريعا وتصبح الكلمة « أبسل على الماء فى كل تلعة » كلام تام مستقيم ؛ فالبسل الحرام والشاعر يشكو من الحرمان ، والصيغة ورسم الحروف صحيحان ، فلا يلبث أحدنا أن يهتف بها كأن إلهاما تنزل عليه من السماء ، ونهتف نحن به مهنئين ونسرع إلى تدوينها وإثباتها فى الأصل ، ثم نكتب فى الحاشية هذه العبارة التى نكتبها كثيراً والتى ربما لا يراها بعض القراء : « رسم الكلمة فى الأصل : أيسيل » !

وتسأل هل تذوقنا هذا الشعر الذى كنا نقرؤه ؟ لكأنما لا يهمنا منه ونحن نقوم نصه فنثبت اختلافات رواياته إلا ما فعلت يد الناسخ به من تصحيف وتحريف وما أكلت الأرضة من نقط أو حروف ! أذكر أنا كنا عاكفين ذات يوم على مخطوطتنا وقد عرض فيها بيت أبى نواس :

عرضن للذى تحب بحب
ثم دعه يروضه إبليس

وكدنا والله نمضى إلى ما بعده ماداء البيت صحيحاً لم يعث به عابث لولا أن سمعنا أحدنا يضرب بيده على المائدة ، ويهمهم بشىء فى نفسه ، ثم يرفع صوته ويردد البيت وقد أخذه الطرب وتملكته فتنته . . . وانتبهنا نحن ورددنا البيت فاذا هو رائع حقا ، فوقفنا عنده قليلا وقد نسينا كل شىء وأخذنا نتحدث فى هذه النصائح النواسية كيف يعلمنا أبو نواس

الحب ويهدينا إلى سبله بهذه اللمحة الغذبة وهذه الاشارة الماكرة . فليس المحب إذن فى حاجة إلى هذه المكاشفة الصريحة الملحة ، حتى يذلل صعب الحبيب ويخفف من امتناعه وتأبيه ، ولكنه يكفى أن يعرض له بهواه ، ثم يدعه ، فان وقع هذا التعريض فى نفسه أشد وأقوى ، وسيلعب الشك واليقين بهذا الحبيب ويتناوبان عليه ، ويأتى إبليس أخيرا فيمسكه من يده ويروضه إليه ! وما نكاد نستروح بهذا البيت ونتذوق معانيه حتى يضرفنا عنه ما نحن فيه من تحقيق وتدقيق وعبث ناسخ وأكل أرضة ، فنسرع لنقطع فى المخطوطة سطراً آخر ؛ فان الذين يشتغلون بالمخطوطات يعلمون أن الفراغ من سطر واحد ليس بالشىء القليل فى بعض الأحيان ! الحق أن ناشر الكتب القديمة يقرأ الشعر فيها لا كما يقرأ الناس الشعر يفتنهم خياله ويستهويهم جماله ، ولكنه ينظر فيه ليقوم نصه ويصحح روايته ويثبت فى الحاشية ما يصح أن يثبت وهو لا يفكر فى جمال الشعر وتجاوبه مع نفسه بقدر ما يهمه صحة الفن واستقامة المعنى ! نعم قد وقفنا عند بيت أبى نواس هذا وأنسانا قوله « يروضه إبليس » أشياء كثيرة لكننا ما لبثنا أن مضينا إلى غيره ، وربما لم تكن فرحتنا بجماله أكثر من فرحتنا بصحة حروفه !

محمد عبده عزام

مركز المرأة بين الجماعات الفطرية

جرى العرف منذ الزمان البعيد أن يتخذ مركز المرأة مقياسا تقاس به الحضارة لدى مختلف الشعوب .

فاذا سأل سائل : هل لنساء شعب من الشعوب حق الانتخاب ؟ وهل لهن أن يكن طبيبات أو محاميات ؟ وهل لهن حق التصرف فيما يملكن ؟ وكان الجواب بالنفى خفت إذن موازين ذلك الشعب الذى يتكر على النساء تلك الحقوق . وكان ذلك الشعب فى قافلة الشعوب من الخوالف القاعدين .

ولكن تقدم علم تاريخ الأجناس البشرية قد ألقى على هذا الحكم ظلالا من الشكوك . ولكى نحكم حكماً قاطعاً فى مثل هذه المسائل يجب علينا أن نبتعد عن مبدأ الاطلاق والتعميم ، وأن نعنى بدرس الحقائق التى اجتمعت لدينا بعد طول الدرس والتقصى .

فقد كاد الاجماع ينعقد على أن سكان استراليا الأصليين هم من أحط الشعوب . وتأييدا لهذا الرأى يؤكد العارفون أن المرأة هناك إن هى إلا دابة من دواب الحمل ، تساء معاملتها وتحتقر ويلقى على كاهلها كل عبء ثقيل .

والرجل هناك يعنى بالصيد فى البر والبحر ويشن الغارات . أما المرأة فهى الزارعة ، وهى البانية ، وهى الحائكة ، وهى صانعة الأوانى الخزفية ، وهى دابغة الجلود ، وهى صانعة السلال ، وهى فوق ذلك ربة البيت ، وهى التى تعنى بالضعاف وبالمرضى . وهى تحمل فوق رأسها جونة فيها كل ما يعنيها فى كل ما تقوم به من عمل أو صناعة ، وهى تحمل فوق ذلك أيضا أسلحة زوجها ، وهى تحمل أيضا طفلا من أطفالها فوق كل هذه الأثقال .

مما تقدم يبدو أن ذل المرأة الأسترالية وخنوعها أمر مقطوع بصحته . ولكن سير بلدوين سبنسر — وهو الحجة الثقة فى هذا الموضوع ، وهو الذى يتكلم عن خبرة لا يرقى

إليها الشك ـ يؤكد لنا أن عيش المرأة الأسترالية والمعاملة التى تلقاها من زوجها هما فى مستوى لا يطمع أن يناله مئات الألوف من اخواتهن ممن يعشن فى الأحياء الحقيرة فى بلاد الانجليز . وهو يؤكد ايضا أن النساء هناك لا يعاملن بالقسوة البالغة . واذا كن يعشن ـ كما هو الواقع ـ معيشة ضنكا فان ذلك العيش الضنك هـو من نصيب الرجال أيضا .

ففى سنى الرخاء يجد الرجال والنساء عملا يعملونه . أما فى السنين العجاف فالرجال والنساء يتقاسمون الشقاء على سواء . والمرأة الأسترالية على خـلاف أختهـا المتحضرة لا يتطلب منها أن تمضى الساعات الطوال فى صنع ملابس زوجها ورتق جواربه . ذلك لأن الرجل الأسترالى هو بصفة عامة رجل عار . وهو اذا اكتسى قنع بحزام يشده على وسطه وبعدة فى حجم قطعة النقود من ذات خمسة القروش تتوسط ذلك الحزام . أما المرأة فلباسها حزام من المطاط يضاف إليه عند بعض القبائل مئزر من شعر .

أما العمل المنزلى عند أولئك القوم فهو أقل من القليل . وكذلك تربية الأطفال فانها عندهم ليست من المشكلات ذوات الخطر كما هى الحال عندنا .

ومن المحقق أن الحب ، كما تدل عليه هذه الكلمة عندنا ، هو قليل الوجود أو نادره . والنساء اللائى يأتين بفاحشة مبينة فانهن يلاقين عقابا شديدا ، وذلك بكى أجسامهن بالنار . أما الندوب التى يراها الراءون فى أجسام النساء وقد تبلغ الأربعين عدا ومكانها ما بين السرة إلى ما فوق الثديين ، فليست من عمل الأزواج الغاضبين ، كما يؤكد سير بلدوين سبنسر .

انمـا تلك الندوب من عمـل النساء أنفسهن ؛ لكى يشهدن الناس على إخلاصهن لمن فقدن من الأزواج . وكذلك الرجال يفعلون بأجسامهم ما يفعل النساء ، ولـكن الرجال يفعلون ذلك ابتغاء الزينة .

والحمل ـ وهو عند المرأة المتحضرة مهمة ذات خطر ـ هو عند المرأة الاسترالية مسألة ليست بذات بال .

ويقول أحد الكتاب : إن القبيلة من القبائل الأسترالية إذا ارتحلت فى سفر قاصد أو غير قاصد ، لا تكلف نفسها عناء قليلا أو كثيرا لكى تتم عملية تافهة كعملية الوضع . وكل ما يعملونه هو أنهم يلفون المولود فى جلد من جلود الحيوانات ، ثم يستأنفون المسير والمرأة الوالدة تدلف مع سائر المرتحلين .

ولـكنا مهما بالغنا فى تعداد ما تتمتع به المرأة الأسترالية من مزايا العيشة الفطرية فاننا لا ننكر أن عيشها مما لا تحسد عليه ؛ فهى تقاسم زوجها ما يلقاه من حرمان وما يلاقيه من خطر . وما يلقاه من حرمان وخطر ليس بالشئ القليل .

ونصيب المرأة من العمل هو ذلك النصيب المضنى الممل . وهى تتزوج أول ما تبلغ مبلغ النساء . وقلما يسمح لها باختيار زوجها . ولزوجها أن يقرضها لمن شاء من الرجال ، وهى لا تستطيع لهذا الاقراض رفضا .

وإذا مات عنها زوجها قامت بما تفرضه عليها العادات من حزن مقعد وهم مقيم ، ثم تصبح بعد ذلك ـ رضيت أو كرهت ـ زوجة لأخ الزوج الفقيد .

ولذلك يقل العجب أو يبطل إذا رأينا المرأة الأسترالية ـ وهى فى شبابها معشوقة القد هيفاء القوام ـ تصبح ـ إذا مسها الكبر ـ مغضنة الوجه ، مقوسة الظهر مترهلة العضل مسترخية المفاصل . وهى إذا بلغت الخامسة والعشرين غاض ماء شبابها وولت محاسنها . وإذا جبت إلى الأربعين خلتها إحدى الغرافات العجائز . وهى قلما

تجاوز الخمسين . وهذه هى ضريبة الشقاء والحرمان .

وفى القبائل الافريقية حيث تثبت الآراء الفطرية لنفوذ الغريبين وآرائهم يشبه مركز المرأة مركز أختها الأسترالية . ولذلك اختص الرجال ـ كما يقول هافلوك اليس ـ بأعمال الحرب والقتال ، واختصت المرأة بأعمال الصناعة .

والمرأة هناك تعنى بتربية الأطفال وبكل عمل يمت إلى البيت بصلة . والرجل هناك يعنى بكل ما يزيد مفاصله صلابة ومتانة .

ويقول الكاتب ج . كلاريدج إن المرأة العادية فى بلاد الكونغو تتزوج فى مثل تذبذب رقاص الساعة بين طفلها وحقلها ، وهما الشيئان اللذان يمثلان أهم ما تعنى به من أمور الحياة . فمن شروق الشمس إلى غروبها تجد المرأة تعزق الأرض وتسقيها وتحصد الزرع وتجنى الثمار . وهى تقوم بهذه الأعمال وطفلها فوق ظهرها ، وهى ترى مرتين فى النهار وهى تذهب لتملأ جرتها من العيون والأنهار . والعارفون يلسبون انتصاب قامة المرأة فى تلك البلاد واعتدال قوامها إلى هذا النوع من العمل . والمرأة هناك هى التى تزرع الخضر وتطبخها . وهى التى تبنى كوخها ، وتقيم من أوده إذا أضرت به الريح أو أتلفه المطر .

من أجل ذلك ينظر للمرأة بين قبائل إفريقية كأنها عملية مالية مذهبة الحواشى ، تدر ربحا وفيرا فى صورة خدمات وأطفال .

ومما يعلى من قدرها ويغلى من ثمنها أنها إذا ماتت كان لزوجها أن يتزوج ـ بغير مهر جديد ـ إحدى أخواتها غير المتزوجات .

وهناك فى نيجريا ترسف المرأة فى قيود الذل فى بعض نواحى العيش ، فى حين أنها تظفر بقسط وافر من الحرية فى بعض النواحى الأخرى .

فهناك لا ينبغى للمرأة أن تصفر إلا إذا رضيت أن تعرض نفسها لتهمة السحر ، ولا أن تطوى أشرعة القوارب أو أن تصعد إلى سقوف الأكواخ . ذلك لأن تحت السقوف تحفظ الملابس التى يلبسها رجال الجماعات السرية . وهى لذلك تعتبر ملابس مقدسة ، فاذا وقعت عليها عين المرأة أصبحت نجسة .

والمرأة هناك يجوز لأبيها أو زوجها أن يرهنها فى مقابل دين . فان غلق الرهن وكان الراهن أباها جاز للدائن أن يضمها إلى حريمه .

وقد يحدث ـ والشئ بالشئ يذكر ـ أنه إذا مرضت امرأة وكانت غير قادرة على أجر الطبيب كتبت على نفسها أن تكون له عبدة مدى الحياة إذا أبرأها من سقمها .

وإلى جانب أمارات الذل التى سلف بيانها نجد كثيرات من النساء يعملن فى الصناعة والتجارة ، ويجنين من عملهن ما يكفلهن هن وأولادهن ، وإن كانت القاعدة أن الزوج هو صاحب رأس المال الأول .

وإن ردت أن تلق القوم الذين نساؤهم فى الدرك الأسفل من الذل ، فانك واجدهم بين أقزام الغابات الاستوائية ، وكذلك أنت واجدهم فى صحارى كلهارى . وهم ـــ كقوم رحل ـــ ليس لنسائهم عمل يعملنه فى المنزل أو فى الحقل . وحياة نسائهم إنما هى دورة طويلة من الحمل والولادة ومن الحرمان يتخللها نوبات من النهم والبطنة يعقبها سبات هو أشبه بسبات الذاهلين .

ولكن يجب أن نقرر أن هذا الشقاء لا يرجع إلى سيطرة الرجل على المرأة ، وإنما يرجع إلى شقاء البيئة التى تعيش فيها وتحيا .

وإن المرء ليجد اليوم قوماً يسكنون تلال نلجرى فى جنوبى الهند يقال لهم « التودا » وهم يبلغون السبعمائة عداً ، وهم يرون أن المرأة أدنى درجة من الرجل طبيعة وخلقة . ولذلك يرون أن الاتصال بها رجس ونجس .

ومن ثم نجد النساء ممنوعات من المشاركة فى حلب اللبن ومخضه ، وممنوعات أيضا من العناية بالجواميس فى إبان الولادة والانتاج . وإذا انتقلت الجواميس من قرية إلى قرية كان على النساء أن يهجرن بيوتهن وأن يخرجن إلى الغابات تحمل كل منهن شارة الأنوثة وهى المكنسة والغربال والهاون .

والبنات مستثنيات من هذا المنع والتحريم حتى يبلغن مبلغ النساء . ولذلك فهن اللائى يقدمن للجواميس العلف ويتولين تنظيف الحظائر .

وكذلك الحال فى كمبوديا بالهند الصينية حيث يحرم على المرأة أن تنام على الوسائد والحشايا التى ينام عليها زوجها .

وفى سيام تتوسد المرأة وسائد أقل درجة من وسائد زوجها للدلالة على نقصها .

وعند بعض الشعوب يرى من غير اللائق ومما ينافي الاحتشام أن تذكر النسوة اسماء أزواجهن .

وفى كثير من البلاد تعزل النساء عن الرجال إذا الليل جن . فتنام النساء والبنات فى البيوت ، وينام الرجال فى ساحات المدينة .

وعلى عكس ما أسلفنا نجد للنساء المقام الأول فى بورنيو الشمالية . فالنساء هناك هن اللائى يتزعمن الاحتفالات الدينية ، والرجال هناك يقنعون بدق الطبول . والنساء هناك هن الكهنة . ويقال إنهن يؤدين الطقوس بلغة لا يفهمها الرجال .

وكذلك هن الموكلات بطرد الأرواح الشريرة من القرية ، وهن يقمن بهذا العمل فى حفل صاخب ، وهن يمشين الهوينى ، وهن يقفن فى كل ركن ، ويقعدن فى كل زاوية يرقصن ويهزجن . حتى إذا وصل الركب إلى جانب البر حيث ترسو السفينة وهى محملة بالهدايا التى تسترضى بها الأرواح الشريرة أمرت الكاهنة بأن تسير السفينة وهى تحمل فوق ظهرها الأرواح التى يظن أنها قد لجأت إليها ثم تجرى بها إلى بلد آخر .

وفى جزيرة سيلان يعيش شعب من سكان الكهوف . والمظنون أن هذا الشعب قد انحدر من سكان الجزيرة الأصليين ، وهم الآن قوم منبوذون . ولا تختلف معيشتهم عن معيشة الوحوش التى تأوى إلى الغابات التى يسكنها هؤلاء الناس .

وعلى الرغم من ذلك فان رجالهم لا يعرفون تعدد الزوجات ، كما أن نساءهم لا يعرفن الخيانة الزوجية . وهن يعشن على قدم المساواة مع الرجال .

مما تقدم يبدو أن القول المكرر المعاد ، والذى يجىء دائماً فى صيغة التوكيد بأن المرأة فى الشعوب غير المتحضرة إن هى إلا دابة من دواب الحمل ، لا يصح الأخذ به إلا عند بعض الشعوب ؛ إذ عند كثير من الشعوب غير المتحضرة لا تلقى المرأة إلا التوقير والتكريم .

والفكرة القديمة القائلة إن كلمة الأنوثة عند الشعوب التى تعيش على الفطرة هى إحدى مترادفات الرق والعبودية هى فكرة لا تثبت للتمحيص والتحقيق .

مبارك ابراهيم

عن الانجليزية